

كُونَ عَدِيمُ اللَّوْنِ، أَوْ كُلُّهُ رَمَادِيٌّ

... [...]

لَمْ يَحْنُ سَاعَةَ الْحُبِّ بَعْدُ!
قَدْ يَهْدَأُ الطَّقْسُ الرَّبِيعِيُّ قَبْلَ أَنْ يَغْتَالَ هَدَاتُهُ،
وَقَدْ يُرْجَى وَقَدْ الْبَرَائِكِينَ؛ حَتَّى تَنَمَّ الْوِلَادَةُ:
وِلَادَةُ السُّكُونِ الْمُرْعَبِ، وَالْمَعْيَةِ النَّرْجِسِ، وَأَقْبِيَّةِ الْوَحْدَةِ، وَكُلِّ السَّنِينِ الَّتِي شَتَّتْ أَطْيَافَهَا...
وِلَادَةُ فُضَاءٍ مِنَ الْأَمْسِ الْمُخَمَّرِ بِالذُّكْرِيَّاتِ، وَبَانْتِكَاسَاتِ الْمَوَاضِي الْمُتَعَبَّةِ،
بِالْخَسَارَاتِ تَزْهُو بِمَجْدِهَا الرَّخِيسِ،
بِحَيْرَةِ الْعَقْلِ فِي مُحِيطِ سَادِجٍ،
بِرِحْلَةِ الْكِيَانِ فِي مَتَاهَةِ الْخَطِّ الْبَيَانِيِّ الصَّاعِدِ الْهَابِطِ،
بِالْفُجَاءَةِ تَنُمُو فِي صَحْبِ الْمَدِينَةِ،
بِالزَّمَنِ الْجَنِينِيِّ لِظُلَامِ قَاهِرٍ عَشُومٍ مُسْتَحِيلٍ،
بِالْجِنْسِ يَرْقُصُ بَيْنَ أَفْخَاذِ النُّبُوَّةِ،
بِعُمْرِ سَقِيْقِ الْعَتَمَةِ،
بِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِلا شَيْءٍ...
.....

قَدْ يَرَدُّدُ الطَّقْسُ الرَّبِيعِيُّ فِي خَلْقِ يَاسَمِينَ جَدِيدٍ يُشَارِكُهُ الدَّرْبَ، وَيَحْرُسُهُ مِنَ الْمَاتَمِ،
وَقَدْ يَهْلِكُ قَبْلَ أَنْ تَهْزِمَهُ رَائِحَةُ الْبَرْدِ؛
فِيكْتَمِلُ الْمَشْهَدُ خَارِجَ النَّيَّاتِ، وَخَارِجَ الْمُتَوَقَّعِ،
وَيَعْدُو لِلْمَكَانِ مَذَاقُ مُحَايِدٍ، وَلِلْهَوَاءِ فِيزِيَاءِيَّةُ الرَّبِّيقِ، وَلِلْحَيْنِ صَدَى مُرْبِكٍ وَصُورَةٌ يَعْجِزُ الْأَوَانُ عَنْ نِسْيَانِهَا...
أَلَمْ مَا تَبَقَّى مِنَ الْوَقْتِ، وَأَعَادِرُ نَحْوِ كَوْنٍ لَا تَصْلُحُ فِيهِ قَوَائِنُ الْجَاذِبِيَّةِ، وَمَا طَالَهُ الْحَيَالُ يَوْمًا...
تُرَافِقُنِي الْفَرَاشَاتُ وَرَائِحَةُ الْفَرَاشِ الصَّبَاحِيَّةِ لِأَنَّ قَدْ اسْتَحَمَّتْ بِعَطْرِ الْأَرْزِ لِتُغْوِي أَرْقَهَا،

لَعَلَّهَا تَحْلُمُ بَعْدَ آمِنٍ لِأَطْفَالِهَا، وَتَنْفُضُ عَنْ يَوْمِهَا مَلَامِحَ الرَّهْمِيَّةِ؛
فَانْتَهَيْتِ مَعَ الْفَرَاشَاتِ إِلَى رَقِصِ رَشِيْقٍ لَيْلٍ، فَصَاوَأَهُ الْمَدَى، وَإِيقَاعُهُ لَا صَوْتَ لَهُ، وَأَطْيَافُهُ لَا نِهَائِيَّةً...
.....

وَحِيدًا فِي الْقَبْوِ،
أَقْرَأُ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ عَنْ خَطَايَا الْيَاسْمِينِ،
يُنَادِمُنِي الصَّمْتُ، وَفُتَاتُ الْوَقْتِ، وَفِنْجَانُ مِنَ الْقَهْوَةِ الْبَارِدَةِ، وَقُصَاصَاتُ الْوَرَقِ، وَأَثَارُ الْأَلْوَانِ الزَّيْتِيَّةِ، وَلَوْحَةٌ
نَاقِصَةٌ، وَنَعِيقُ الْعُرْبَانِ فِي الْخَارِجِ، وَرُجَاجُ نَافِذَةٍ يَكْشِفُ عَنْ سَمَاءٍ لَا لَوْنَ لَهَا... وَكَأَنَّ النَّبْضَ يَنْتَظِرُ آذَانَ مَنْ غَيْرِ
مَا جَدَوِي؛ فَهَذَا الرَّبِيعُ غَيْرُهُ فِي الْأَمْسِ، وَشَجَرَةُ الْحَوْخِ لَمْ تَعُدْ تُصْغِي إِلَيَّ، وَلَا شَجَرَةُ التَّفَاحِ، وَلَا الْبُتُولَا، وَلَا
شُجَيْرَاتُ الْعُنَابِ، وَالْعَصَافِيرُ لَمْ تَعُدْ تَدُقُّ عَلَى نَافِذَتِي الْخَلْفِيَّةِ الصَّغِيرَةِ لِتَوْقِظَنِي مِنَ النَّوْمِ، أَوْ تَطْرُقَ بَابِي كَيْ
تُحَاوِرَنِي...
أَسْتَسَلِّمُ لَأَفْتِرَاءَاتِ النَّهَائِيَّةِ عَلَى الْبِدَائِيَّةِ، وَأَكْتَشِفُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى أَيْنَ انْتَهَتْ قَوَافِلِي عِنْدَمَا أَخْطَأْتُ، وَأَنْسَحَبْتُ إِلَى
عَوَالِمِ خَالِيَّةٍ مِنَ الزَّيْفُونِ...

كَأَنَّ آذَانَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ...
كَأَنَّ آذَانَ يَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ...
كَأَنَّ آذَانَ يَذْكُرُ كُلَّ شَيْءٍ، حَيْنِي وَبِرَاءَةَ الْحَبِيقِ؛
فَيَنْتَجِرَ عَلَى بُكَاءِ الْوَقْتِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَهُ الْحَيْبَةُ...

لَمْ نَحْنِ سَاعَةَ الْحُبِّ بَعْدُ؛
فَمَا زِلْتُ أَخْشَى الْحَيْنَ، وَأَخَافُ التَّمَنِّيَ،
وَهَذَا الْكُونُ عَدِيمُ اللَّوْنِ، أَوْ كُلُّهُ رَمَادِيٌّ!

...] ...

آدون المير، 1991 (بتصرف)